﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين النّومِ واليقظَةِ، ودورِ الحفظةِ في توفِّي الأنفُسِ

هذا نوعٌ آخَرُ منَ الدّلائلِ الدّالّةِ على كمالِ قُدرةِ الله تعالى، وكمالِ حِكمته. فلمّا حدَّثَنا بيانُ اللهِ تعالى في الآيةِ السّابقةِ عنِ النَّوم، وهو قهرٌ للإنسانِ لا يستطيعُ أن يعيشَ بدونِه، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ ببيانِ ما يقهَرُ الإنسانَ بأشدَّ ما يكونُ عليه؛ وهو الموتُ، فالنَّومُ والموتُ بخلْقِ الله، وكلاهما ناطقٌ بقَهرِ اللهِ عبادَه بهما، ولذلك "يرسلُ حفظَةً منَ الملائكة على العبادِ، يتعاقبون عليهم ليلًا ونهارًا، يحفظون أعمالَهم، ويُحصونَها، ما داموا على قيْدِ الحياةِ، ولا يُفرّطون في شيءٍ منها، حتّى إذا جاء أحدَهم أجلُه، توفّته ملائكةُ الموتِ الموكّلون بذلك بإذنِ ربِّهم، وهم لا يُقصّرون فيما يوكَلُ إليهم"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾: القهرُ: الغلبةُ والأخذُ من فوقٍ على طريق التّذليلِ، و(قهرَهَ) (كمنَعه) قهرًا: غلبَه. ويُقال: قهرَه: إذا أخذَه قهرًا من غيرِ رِضاه[2]، والقافُ والهاءُ والرَّاءُ كلمةٌ صحيحةٌ، تدُلُّ على غَلَبةٍ وعُلوٍّ، يُقالُ: قَهَرَهُ يَقهَرُهُ قَهرًا، والقاهرُ: الغالبُ، وهو اسمٌ جليلٌ من أسماءِ اللهِ ﷻ[3]، والقهّار: اسمٌ من أسماء الله الحُسنى، ومعناه: الّذي يقصمُ ظهرَ الجبابرةِ من أعدائه، فيقهرُهم بالإماتةِ

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 273.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قهر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قهر).

والإذلالِ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ [الرّعد: 16]"[1]، وقال ابنُ الأثير: "القاهرُ: هو الغالبُ جميعَ الخلْقِ"[2].

2) ﴿وَيُرۡسِلُ﴾: من رَسَلَ: الرّاءُ والسّينُ واللّامُ أَصلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ مُنقاسٌ، يدُلُّ على الانبعاثِ والامتدادِ، والرَّسولُ: هو الَّذي يُكلَّف بوَحْيٍ منَ الله تعالى برسالةٍ يُبلِّغُها إلى مَنْ أُرسِلَ إليهم، وهو الَّذي يأنَسُ المؤمنون به، وهو من معنَى قول القائل: استرسَلتُ إلى الشَّيءِ: إذا انبَعثَتْ نَفسُكَ إليه، وأَنِستَ به[3]، وأرسلتُ فلانًا في رسالة، فهو مُرسَلٌ ورسول،... والرّسولُ أيضًا: الرّسالةُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشّعراء: 16]، ولم يقُل: رُسُلُ ربِّ العالمين؛ لأنّ فعولًا وفعيلًا، يستوي فيها المذكّرُ والمؤنّث، والواحدُ والجمعُ، مثلُ: عدوٌّ وصديقٍ[4]، و"الإرسال أيضًا: التّوجيهُ، وبه فُسّر إرسالُ الله ﷻ أنبياءَه ﷺ، كأنّه وجَّه إليهم أن أنذروا عبادي، قاله أبو العبّاس. والاسم: الرّسالةُ، بالكسر، والفتح[5].

3) ﴿حَفَظَةً﴾: حَفِظَ: الحاءُ والفاءُ والظّاءُ أصلٌ واحدٌ يدُلّ على مُراعاة الشَّيءِ، يُقالُ: حَفِظتُ الشَّيءَ حِفظًا، والحِفظُ يُستعمَلُ في كُلِّ تفقُّدٍ، وتَعهُّدٍ، ورعايةٍ، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: 12][6]، ومنه الآيةُ الَّتي معنا في قولِه تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾، وهُمُ الملائكةُ الّذين يَحفَظونَ الإنسانَ، ويتعهَّدونَه بالرِّعايةِ في أحوالِه كُلِّها بأمْرِ الله، وهمُ المعقِّباتُ الّذين وردَ ذكرُهم في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرّعد: 11]. والحَفَظَةُ، محرّكةً: الّذين يُحصون أعمالَ العباد، ويكتبونَها عليهم منَ الملائكة، وهم الحافظون، قال الجوهريّ: والحفظَةُ: الملائكةُ الّذين يكتبون أعمالَ بني آدمَ[7].

4) ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾: فَرَطَ: الفاءُ والرّاءُ والطّاءُ أصلٌ صحيحٌ، يدُلُّ على إزالةِ شيءٍ من مكانِه وتَنحيتِه عنه، يُقالُ: فرَّطتُ عنه ما كرِهَه؛ أي: نَحَّيتُه، وهذا هو الأَصلُ. والتَّفريطُ:

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (قهر).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قهر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (رسل).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (رسل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفظ).
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حفظ).

هو التَّقصيرُ؛ لأنَّه إذا قصَّرَ فيه فقد قَعَدَ به عن رُتبَتِهِ الَّتي هي له[1].

"وفَرَّطَ في الشَّيءِ، وفَرَّطَه: ضَيّعَه وقَدَّمَ العَجزَ فيه، وفي التَّنزيل: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزمر: 56]؛ أي: مَخافَةَ أن تَصيروا إلى حالِ النّدامَةِ للتَّفريطِ في أَمرِ اللهِ، والطَّريقِ الَّذي هو طَريقُ اللهِ الّذي دَعا إليه، وهو توحيدُ اللهِ، والإقرارُ بنُبوَّةِ رسولِه ﷺ"[2].

والمعنَى المرادُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾؛ أي: أنَّ الرُّسُلَ، وهم هنا الملائكةُ، لا يُقصِّرونَ ولا يتخلَّفونَ عن أمْرِ اللهِ، في قبْضِ أرواحِ العبادِ.

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

يُخبرُ اللهُ ﷻ عبادَه بأنَّه هو الغالبُ عليهم، ويُرسلُ عليهم ملائكةً تحفظُهم منَ الآفات، ويحفظونَ كذلك أعمالَهم، حتَّى إذا قدَّر اللهُ الموتَ على أحدِهم، تنحَّتِ الحَفظَةُ، وجاءَتْ ملائكةُ الموتِ لتقبِضَ روحَه دون أيِّ تقصيرٍ في تنفيذِ أمرِ اللهِ ﷻ، ومهمّتُهم إحصاءُ الأعمال مُدّةَ الحياةِ، حتّى إذا انتهى الأجَلُ، وحُمَّ القضاءُ، وجاءتْ أسبابُ الموت ومُقدّماتُه، توفّتْه رسلُنا، والحالُ أنّهم لا يُفرّطون، ولا يُقصّرون بزيادةٍ في الأوامرِ، أو نقصانٍ في التّعليماتِ[3].

يُرسِلُ اللهُ الملائكةَ؛ لإحصاءِ الأعمالِ، وقبْضِ الأرواحِ

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

العطْفُ يُبيّنُ قُدرةَ الله على عبادِه، في الحياةِ، وعندَ المماتِ:

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، عُطِفَت على جملة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾، وقولُه: ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾؛ أي: الغالبُ المُكْرِهُ الَّذي لا يَنفلتُ مِن قُدرتِه مَن عُدّيَ إليه فعلُ القَهرِ منَ الآلهةِ المزيَّفةِ الَّتي اتَّخذَها

توكيلُ تنفيذِ قدَرِ اللهِ إلى الملائكةِ الأطْهارِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرط).

(2) ابن سيده، المحكم 9/157.

(3) الحجازي، التّفسير الواضح، ص: 622.

كثيرٌ منَ النّاس آلهةً لهم من دونِ اللّه، كالأصنامِ والبَشرِ والحجرِ والشَّجرِ، وغيرِ ذلك ممّا عُبِدَ من دونِ اللّهِ أو معَ اللّه، وقد جاء العطفُ لبيان قُدرةِ اللّه الغالبِ، فيؤكِّدُ لهم أنّه المُستعلي بسُلطانِه على عبادِه، حيث يرسلُ عليهم ملائكةً، يُحصونَ الأعمالَ، إلى أن تجيءَ الآجالُ، فتُقبَضَ الأرواحُ منَ الملائكة المكلَّفين بذلك، وهم لا يُقصّرون فيما يوكلُ إليهم من مهامَّ، ولا يَعصون اللّه ما أمرَهم، في البدْءِ، ولا في الختام[1].

دلالةُ أُسلوبِ القَصْرِ على مُطلَق قهْرِه سُبحانَه، ونفاذِ مُرادِه في خلْقِه:

قهْرُ القاهرِ لا يُغالَبُ بأسُه، ولا يُتّقى بطْشُه

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾، معنى "القاهر هو المتحكّمُ بقُدرةٍ فائقةٍ محيطةٍ مستوعِبةٍ"[2]، وقد أفادَ تعريفُ الجُزأَين، في الضّميرِ المنفصلِ المبنيِّ (هو)، و(اللّام) في قولِه: (القاهر)؛ القَصْرَ؛ أي: لا قاهرَ إلّا هو ﷻ؛ لأَنَّ قهرَ اللّه تعالى هو القهرُ الحقيقيُّ الَّذي لا يجدُ المقهورُ منه مَلاذًا؛ لأنَّه قهرٌ بأسبابٍ لا يستطيعُ أحدٌ منَ الخَلْقِ أن يُدافعَها؛ ومنها ما يُشاهَدُ دومًا كالنَّومِ والموتِ، ففي القَهرِ معنًى زائدٌ ليس في القُدرةِ، وهو منعُ غيرِه من بُلوغِ المرادِ، "فالنَّومُ قهرٌ؛ لأنّ الإنسانَ قد يريدُ أن لا ينامَ، فيغلبَه النّومُ، والموتُ قهْرٌ؛ وهو أظهرُ، ومنَ الكَلِم الحقِّ: سبحانَ مَن قهَرَ العبادَ بالموتِ"[3].

دلالةُ الاستعارةِ التّمثيليَّةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ﴾:

قَدَرُ اللّه لا مَفرَّ منه، ولا مَندوحَةَ عنه

لفظُ ﴿فَوۡقَ﴾ ظرفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﴿ٱلۡقَاهِرُ﴾، وهو استعارةٌ تمثيليَّةٌ لحالةِ القاهرِ، بأنَّه كالَّذي يأخذُ المغلوبَ مِن أعلاه، فلا يجدُ مُعالجةً، ولا حَراكًا، وهو تمثيلٌ بديعٌ، ومنه قولُه تعالى حكايةً عن

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 182.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ، ص: 182.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/277.

فرعونَ: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 127]، ولا يُفهَمُ من هذا جهةٌ، كما قد يُتوهَّمُ، تنزَّه اللهُ تعالى عن الجهاتِ، ويكونُ معنَى القهرِ فوقَ العباد: أنَّه تعالى خالقُ ما لا يَدخُلُ تحتَ قُدَرِهم، بحيث يوجِدُ ما لا يُريدونَ وجودَه كالموتِ، ويمنعُ ما يُريدونَ تحصيلَه كالولَدِ للعقيم[1]، وعلى ظاهر اللّفظ: "يصحُّ أن تُجعلَ ﴿فَوْقَ﴾ ظرفيّةً للجهةِ؛ لأنّ هذه الأشياءَ، إنّما تعاهَدَها العبادُ مِن فوقِهم، وإنْ أُخِذَ القاهِرُ صفة ذاتٍ، بمعنى القُدرةِ والاستيلاءِ، فـ ﴿فَوْقَ﴾: لا يجوزُ أن تكونَ للجهة، وإنَّما هي لعلوِّ القَدْرِ والشّأن"[2].

عطْفُ القصرِ على سابِقه، في قولِه تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾:

إرسالُ الحفظَةِ الكرامِ، حُجّةُ الله على الأنامِ

قولُه تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ عطْفٌ على ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾، فيُعتَبَرُ أيضًا بقرينة المقام؛ أي: القاهرُ الّذي يُرسِلُ عليكم حَفَظَةً دونَ غيرِه، والقَصرُ هنا حقيقيٌّ، حيث لا يَستدعي ردَّ اعتقادٍ مُخالِفٍ؛ وفي هذا الإعلام تحذيرٌ للسّامعينَ مِن ارتكاب المعاصي، والمعنى: أنّ الملائكةَ الحفظَةَ: "يَحفظون عليكم كلَّ حركةٍ وسُكونٍ، لتَستَحْيوا منهم، وتخافوا عاقبةَ كتابتِهم. ويقومُ عليكم بشهادتِهم الحُجّةُ على مجاري عاداتِكم، وإلّا فهو سُبحانَه غنيٌّ عنهم؛ لأنّه العالمُ القادرُ، فيَحفظونَكم على حسَبِ مُرادِه فيكم"[3]، وفي هذا البيانِ حكمةٌ جليلةٌ ونعمةٌ عظيمةٌ، فعند ما يعلمُ المكلَّفُ أنَّ أعمالَه تُحفَظُ، وتُضبَطُ عليه، وستُعرَضُ على رؤوس الأشهادِ يومَ القيامةِ، فإنه سينزجرُ عنِ ارتكابِ المعاصي، وإلّا فإنَّه إنْ رَكَنَ إلى عَفوِ سيِّده، وأمِنَ عقوبتَه، فإنَّه سَيستمرئُ الغِوايةَ، ويَتمادَى في الضَّلالةِ، وهَيهات هَيهات أن يَرعَويَ، أو يَعودَ إلى رُشدِه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/164 - 165.

(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسّان 2/475.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/139.

دلالةُ عطْفِ الفعْلِ على الاسمِ، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ ﴿وَيُرْسِلُ﴾:

المُغايَرةُ بين الصّفاتِ الإلهيّةِ وصِفاتِ المخلوقِين

في ذِكْرِ الصِّفةِ الإلهيّةِ بالجملةِ الاسميّةِ بأسلوبِ القصْرِ تأكيدٌ على كونِها صِفةً ثابتةً، وفي العطْفِ عليها بقولِه: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، فلم يكُنْ: والمُرسلُ عليكم حفظةٌ؛ تنبيهًا على تجدُّدِ فعْلِ المرسَلِين، وتنوُّعِهم، وتغيّرِهم، وكثرتِهم، وهم مخلوقون، واختلافُ الأحوالِ شأنُهم وصفتُهم.

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ (على) في قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾:

قهْرُ الله يَطالُ كلَّ البشرِ، ويستوفِي ما بطنَ وما ظهرَ

تظهرُ هنا أهمّيّةُ استخدامِ البيانِ الإلهيِّ للحرفِ (على) الَّذي يُفيدُ هنا الاستعلاءَ المجازيَّ، وهو متعلِّقٌ بـ ﴿وَيُرْسِلُ﴾؛ أي: إرسالَ قهرٍ وإلزامٍ، فهذا الاستعلاءُ فيه معنَى العلوّ والقهر، وتقديمُه على المفعولِ الصَّريحِ ﴿حَفَظَةً﴾؛ لمزيدِ الاعتناءِ بالمُقدَّم، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّر، ويمكنُ أن يكونَ مُتعلِّقًا بمحذوفٍ، هو حالٌ من ﴿حَفَظَةً﴾، إذ لو تأخَّر لكان صفَةً؛ أي: كائِنينَ عليكم، ويمكنُ كذلكَ أن يكونَ مُتعلِّقًا بـ ﴿حَفَظَةً﴾، والمحفوظُ محذوفٌ على كلِّ حال؛ أي: يُرسلُ عليكم ملائكةً يحفظونَ أعمالَكم كائنةً ما كانت[1]، ولفظُ (على) يوحي بمعنى المرافقةِ الدّائمةِ، والرّقابةِ على الأفعال، خيِّرةً كانت أم شرّيرةً، ولذلك كان قهرُه مُستغرِقًا كلَّ البشرِ، مؤمنِهم وكافرِهم، قال القُمّيّ: "وهو القاهِرُ بوصْفِ الجلال للأولياءِ، قهّارٌ بوصْفِ الجبروتِ للأعداء"[2]، وقد يُؤوَّلُ على أنّه "متعلّق بقولِه: ﴿وَيُرْسِلُ﴾، ومنه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ [الرّحمن: 35]، والثّاني: أنّه متعلّق بـ ﴿حَفَظَةً﴾، يُقال: (حَفِظْتُ عليه عملَه)، فالتّقديرُ: (ويُرْسل حَفَظَة عليكم يحفظون أعمالَكم)، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ١٠﴾ [الانفطار: 10]، و﴿عَلَيْكُمْ﴾ هو الخبرُ، لقولِه: ﴿وَإِنَّ﴾، فيتعلّقُ بمحذوفٍ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/223 - 224.

(2) القمّيّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/100.

والثّالث: أنّه متعلّقٌ بمحذوف على أنّه حالٌ من ﴿حَفَظَةً﴾، إذ لو تأخّر لجاز أن يكون صفةً لها[1].

دلالةُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ على الغايةِ، في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾:

كلُّ لذّةٍ في الحياةِ تنتهي بلحظةِ المماتِ

قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غايةٌ لما بعدَها، وهي الجملةُ الشَّرطيَّةُ، في قولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، وهو مُتعلِّقٌ بـ (الحَفَظَة) الّذين يُحصونَ أعمالَ العبادِ ويَضبِطونَها؛ أي: فينتهي الإحصاءُ بالموتِ، فإذا جاءَ وقتُ انتهاءِ أجلِ الحياةِ الدُّنيا، توفَّتْه ملائكةُ الموتِ المكلَّفونَ بقبضِ الأرواحِ.

والسّياقُ يقتضي أنَّ لكلِّ واحدٍ منَ النّاس عددًا منَ الملائكة يتولَّوْن قَبْضَ روحِه[2]، ومعنى قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، أنّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾: "هنا للغايةِ، والمعنى المرادُ: أنّ هذه الحالَ، سوف تستمرُّ، حتّى يجيءَ أحدَهم الموتُ"[3]، فهي إنذارٌ بأنّ أفعالَ كلِّ بشرٍ، هي تحت المجهَرِ، وأنّ الرّقابةَ دائمةٌ لا تفترُ، فعلى النّاس أن يحسبوا حسابًا للعُقبَى، وأن يعلموا أنّ الغايةَ في المُنتهَى؛ هي هجومُ الموتِ بغتةً على الإنسانِ، فلا يجدُ منه فرارًا، ويجدُ ما عَملَ مِن عَملٍ مُحضرًا، وهناك لا ينفعُه مالٌ ولا بنون، قال الآلوسيّ: "و ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، هي الّتي يُبتدَأ بها الكلامُ، وهي مع ذلك تجعلُ ما بعدها منَ الجملةِ الشّرطيّةِ غايةً لما قبْلَها، كأنّه قيلَ: (ويرسلُ عليكم حفظةً، يحفظون ما يحفظون منكم مُدّةَ حياتِكم، حتّى إذا انتهت مُدّةُ أحدِكم، وجاءَت أسبابُ الموتِ ومباديه، توفّته رسلُنا الآخرون، المفوّضُ إليهم ذلك، وانتهى هناك حفْظُ الحفظَةِ)"[4].

(1) السّمين، الدّرُّ المصون: 4/666.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/278.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2528.
(4) طنطاوي، الوسيط: 5/93.

دلالةُ وُرودِ المضافِ المشتقِّ ﴿رُسُلُنَا﴾ في قُوّةِ النَّكرَة:

ملائكةُ تنفيذِ التّدبيرِ، غيرُ ملائكةِ إنفاذِ التّقديرِ

قولُه: ﴿رُسُلُنَا﴾ في قوّة النَّكرةِ؛ لأنَّ المُضافَ مُشتقٌّ فهو بمعنَى اسمِ المفعولِ، فلا تُفيدُه الإضافةُ تعريفًا، ولذلك فالمرادُ منَ الرُّسُلِ الَّتي تتوفَّى العبادَ رُسُلٌ غيرُ الحَفَظَةِ المرسَلين عليهم، بناءً على الغالبِ في مجيءِ نكرةٍ عَقِبَ نكرةٍ أنَّ الثّانيةَ غيرُ الأولى[1]، و"هؤلاء الرّسلُ هم أعوانُ مَلكِ الموتِ، كما قال تعالى: ﴿۞قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السّجدة: 11]، قال ابنُ عبّاس وغيرُه: لملكِ الموتِ أعوانٌ منَ الملائكة، يُخرجون الرّوحَ منَ الجسدِ، فيقبضُها ملكُ الموتِ، إذا انتهَتْ إلى الحُلقوم"[2].

تعلُّقُ الفعْلِ بالضَّميرِ، في قوله تعالى: ﴿جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ﴾:

لا مَنجى مِن هادمِ اللّذّاتِ، ومُفرِّقِ الجماعاتِ

قولُه: ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ عائدٌ لضميرِ ﴿أَحَدَكُمُ﴾ الّذي هو في معنى الذّاتِ، وهو دليلٌ على أنَّ استيفاءَ حياةِ الإنسانِ وخَتمتِها يكونُ بقبضِ روحِه في الوقتِ المقدَّرِ بأمرِ الله[3]، وكونِ الضّميرِ المتّصلِ بالفعْلِ دالًّا على مَن قُصدَ بالوفاة، وهو ﴿أَحَدَكُمُ﴾، فإنّ الموت سوف يَطالُ كلَّ أحدٍ، ولا ينجو منه أحدٌ، لكنّ المعاناةَ تتجدّدُ لدَى البشرِ بتجدُّدِ الأدوارِ، على سبيلِ الإلزامِ لا على سبيلِ الاختيارِ، حيث تتوفَّى الملائكةُ، منِ استنفدَ أجلَه، وحانت منيّتُه، فيقومون بقبْضِ روحِه في لحظةِ التّقديرِ، من غير تقديم ولا تأخيرٍ؛ وفي تقديمِ المفعولِ به على الفاعلِ (أحدكم الموت) قصْرٌ مجيءِ الموت على المقصودِ به دون سِواه تنبيهًا على حتميّةِ الآجالِ؛ وفي إسنادِ المجيءِ إلى الموتِ مجازٌ عقليٌّ يُرادُ منه تأكيدُ حُدوثِه، وكأنّه جاءَ بنفسِه، والحقيقةُ أنّ الّذي يأتي همُ الملائكةُ الموكَّلون بقبْضِ الأرواحِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/278.

(2) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/231.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/278.

توجيهُ المعنَى وَفْقًا لاختلافِ القراءةِ القرآنيّةِ في قولِه تعالى: ﴿تَوَفَّتۡهُ﴾:

فَهْمُ القراءةِ القرآنيّةِ، لا بدَّ أن يتطابقَ مع وجْهٍ في العربيّةِ

قولُه تعالى: ﴿تَوَفَّتۡهُ﴾، وردت فيه قراءتان[1]: الأولى: ﴿تَوَفَّتۡهُ﴾ بالتّاء على تأنيثِ الجماعة. والثّانيةُ: (توفّاهُ)، بألفٍ مُحالةٍ على إرادةِ الجَمعِ، وهذه القراءةُ تحتملُ وجهَين: الأوّلُ، وهو أظهرُهما: ماضٍ، وإنّما حذفَ تاءَ التّأنيثِ لسببَيْن: أحدُهما: كونُه تأنيثًا مجازيًّا، والثّاني: أنّه مضارع، وأصلُه تتوفّاه بتاءَيْن[2]، وقرأ الأعمش: (يَتَوَفّاهُ) مُضارعًا بياء الغَيبَةِ، اعتبارًا بكونِه مؤنّثًا مجازيًّا، أو للفَصْلِ، وقال أبو البقاء: وقرئ شاذًّا (سَتَوفّاهُ) على الاستِقبالِ، ولم يذكر بياء، ولا تاء[3]، وهذا التّنوّعُ في القراءاتِ القرآنيّةِ، يفسحُ المجالَ واسعًا، لانقداحِ الذّهنِ عن معانٍ متنوّعةٍ، قد يرتضيها العقلُ، وتقبلُها قواعدُ اللّغةِ، وتأنسُ لها أصولُ التّفسير، وقد تكونُ القراءةُ شاذّةً فترفضُها وتُجانِفُها، وهذا بذاته ثراءٌ كبيرٌ في هذا المضمارِ العلْميّ والذّوقيّ، المنفتحِ على أصول المعرفةِ القرآنيّةِ وتطبيقاتِها.

بلاغةُ القَيْدِ بالحالِ في الإبانةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾:

الحفظَةُ جنسٌ عابدٌ لطيفٌ، لا يُفرّطُ في أمْرٍ ولا تكليفٍ

فجُملةُ: ﴿وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ تحتملُ وجهَين، أظهرُهما: أنّه: حالٌ؛ أي: والحالُ أنَّ ملائكةَ الموتِ لا يُقصّرون في العملِ المُناطِ بهم، فهم لا يَتوانَونَ في قبضِ أرواحِ العبادِ عندَ حُلولِ أجلِها، ولا يَترُكونَ أيًّا منها قد حانَ أجلُه. والثّاني: أنّها استئنافيَّةٌ، سيقتْ للإخبارِ عنهم بهذه الصِّفة[4]، وكونُها جملةً حاليّةً أقربُ إلى مدلولِ السّياقِ؛ والجمهورُ على التّشديدِ في قولِه: ﴿يُفَرِّطُونَ﴾؛ ومعناه: لا يُقصِّرون[5]..

(1) الأولى: قراءة الجمهور، والثّانية: قراءة حمزة. يُنظر: ابن الجزري، النشر: 2/258، ويُنظر: العكبريّ، إملاء ما منَّ به الرَّحمن: 1/245.

(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/667.

(3) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 8/197.

(4) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/667.

(5) "قال الزّمخشريّ: (فالتّفريط: التَّواني والتّأخير عنِ الحَدِّ، والإفراطُ مُجاوَزَةُ الحدِّ؛ أي: لا ينقصون ممّا أمروا بِهِ، ولا يزيدون). والثّاني: أنَّ معناه لا يتقدَّمون على أمرِ الله، وهذا يحتاج إلى نَقلِ أنَّ (أفرَطَ) بمعنى (فَرَّط)، أي: تقدَّم. قال الجاحِظُ قريبًا من هذا، فعنه قال: (معنى لا يُفْرِطون: لا

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القاهر والعزيز والقادر:

القَهْرُ أعـمُّ مِنَ العِزَّةِ، والقُدرةُ أشملُ منهُما

العزيزُ: الغالبُ الَّذي لا يفوتُه شيءٌ، ولا يُعجِزُه شيءٌ، والصِّفةُ بعزيزٍ لا تتضمَّنُ معنَى القهْرِ، والصِّفةُ بقاهرٍ تتضمَّن معنَى العزِّ، يُقال: قَهرَ فلانٌ فلانًا، إذا غلبَه وصارَ مُقتدِرًا على إنفاذِ أمرِه فيه[1]، وعزَّ فلانٌ؛ أي: صارَ عزيزًا؛ أي: قويَ بعد ذِلّةٍ، وأعزّه الله، وعززْتُ عليه أيضًا: كرُمتُ عليه[2]، ومن أسماءِ الله تعالى (العزيز)، وهو الغالبُ القويُّ الّذي لا يُغلبُ[3].

والعزّةُ: حالةٌ مانعةٌ للإنسان مِن أن يُغلَبَ، وهي يُمدحُ بها تارةً، ويُذمُّ بها تارةً، كعزّةِ الكفّار: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾ [ص: 2][4]، وأمّا القُدرةُ فتكونُ على صغيرِ المقدورِ وكبيرِه، وأمّا القهرُ فيدلُّ على كِبَرِ المقدورِ، لهذا يُقالُ: مَلِكٌ قاهرٌ إذا أُريدَ المبالغةُ في مدْحِه بالقُدرةِ، ولا يُقالُ في هذا المعنَى: مَلِكٌ قادرٌ؛ لأنَّ إطلاقَ قولِنا: قادرٌ، لا يَدُلُّ على عظيمِ المقدورِ، كما يدلُّ عليه إطلاقُ قولِنا: قاهرٍ[5]، وممّا تقدَّمَ يتبيَّنُ أنَّ استخدامَ البيانِ الإلهيِّ لاسم (القاهرِ) أقوَى في دَلالةِ قهْرِ اللهِ على عبادِه، وغَلَبتِه عليهم، وعظمةِ مقدورِه، وقُدرتِه على إنفاذِ أمرِه فيهم.

الإرسال والبَعث:

البـعـثُ فيـه معنَى الحركَةِ، والإرسـالُ أخَصُّ منه

البعثُ يأتي بمعانٍ عدّةٍ، منها: الإحياءُ: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ لما فيه من إثارتِهم وتحريكِهم، فمعناه مرتبطٌ بالإثارةِ والتّحريكِ، وهو

يدعون أحَدًا يَفْرُط عنهم؛ أي: يَسبِقُهُم ويفوتهم)، وقال أبو البقاء: (ويقرأ بالتّخفيف؛ أي: لا يزيدون على ما أمِروا به، وهو قريبٌ ممّا تقدَّم)". النّصّ من ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 8/198.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 358.

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (عزز).

(3) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 3/228.

(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (عزز).

(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 421.

يُستخدمُ بمعنى الإرسالِ المقترنِ بالتّحريكِ والإثارةِ، فالمعنَى المحوريُّ: إثارةُ الحيّ - من مكانٍ - يلزمُه بقوّةٍ، فيندفعُ ناهضًا أو مُبتعدًا، والبعثُ: الإثارةُ والدّفعُ نحو عملِ شيءٍ ما، والبعثُ: إنهاضٌ بعد موتٍ مؤقَّتٍ، والرّسولُ ينطلقُ من طرَفِ مَنْ أرسلَه برسالةٍ متميّزةٍ عنه؛ أي: ليس هو مُنشِئَها[1]، والإرسالُ مختصٌّ بمَن كان معه رسالةٌ أو تكليفٌ، واستُخدم هنا لأنّه الأنسبُ بالسّياقِ.

(1) جبل: المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث - رسل).